موسيقى شوبرت

شوبرت أخصب الموسيقيين وأغزرهم فى تصوير الأدب والتعبير عنه والتفكير فيه وما دامت الموسيقى تثير فى الانسان شجونا أنفذ من الادب فأثره خالد . موسيقاه كأصوات الطبيعة لا أثر للجهد المضني أو تعمل المجهود فيها . اذ أسلم نفسه للاكى الحب والجمال فأفاضا عليه من وحيهما الفياض فتلاشت نفسه أمام العظمة الكونية التى خلدتها أنغامه . لم يك شوبرت من العبقريين الذين يخضعون لشيطان نبوغهم فتكبت العاطفة و الغريزة الشخصية عندهم بقدر أو تفنى فلا يصبون الا إلى العالم اللانهائى بل كان جم التمتع بكل ما فى دنياه من جمال وصداقة و خبرة يقظ المشاعر

والفكر دائم اللذة الروحية دائم التصوير لضروب الحياة . فكانت كل ضروب التفكير والعاطفة لها عنده شجاها ولذتها ومعناها الذى يتغلغل فى أنحاء النفس. فهو أقرب الشبه بكيتس (الشاعر الانجليزى الشاب) أو شكسبير فى مستهل عظمته اذ لم يك بعد إلا شاعر الاغانى (فينوس وادونيس) ومن السهل أن تجد صنوه بين الشعراء عن أن تجد له قرينا بين الموسيقيين للحرارة التى تشع فى نغمه لا عن تعمد واصطناع بل سريان عناصر الطبيعة .

بدأ عظيما مبدعا . فانشودة (جرتشن أم شبنراده) Gretchem am Spinnrade (الفتاة ذات الطوق) كتبها وهو ابن السابعة عشر .

فتش كيفما شئت فانك لن تجد موضع ضعف أو اشارة شخصية فى أغانيه وان البساطة والسهولة التى يتملك بهما موضعه فى سداد وتوفيق الهام يلغان به ذروة الفن وأغانى الحب التى نظمها تقرب من روح التقديس والعبادة فهو فى عمق تفكيره وانشاده وانغامه متصوف وعنده امتزج الشعر والموسيقى واقترنا فى روح واحدة اقترانا لا تنفصم عروته الوثقى وقد كان ذلك يستعصى على من قبله من كبار الموسيقيين

وفى طفولته كان شعر شيلر وجوته مضرب الامثال وأغانيهما فخر العالم المتكلم بالالمانية . وكان (جوفينا) مشبعا بالروح الموسيقية . وبينا كان الموسيقيون الذين سبقوه مقيدين بالشكل والاسلوب مرغمين على شيء من التقليد والجمود . كانت الموسيقى عند شوبرت أداة مطواعة مواتية للافصاح عن كل ما يجيش بالنفس والتعبير عن كل ما يجول بالنفس البشرية أداة مرنة لعوبة طروبة مرحة أكثر افصاحا عند «شوبرت» من اللغة ذاتها . فقد كان شوبرت يرى أن الغناء يجب أن يكون خادم الفن لا سيدة .

وكانت الاغنية محببة عنده أكثر من القطعة الموسيقية الغنائية بحيث قد تكون مقطوعاته الآلية ثانوية .

وكانت القصيدة يتناولها نفسه فتحيل الالفاظ نغما شجيا ينفخ فيها من سحر نفسه فتخرج قطعة فنية ملتهبة مستعرة بقوة المشاعر على قدر ما فيها بين الاسهاب والايجاز

وفى اغانى هذا الساحر يفيض الحزن الى فرح وينقلب الفرح حزنا وكل ذلك فى حلاوة ولذة دون عنف أوتعسف او اسراف . ومات شوبرت ولما يقطع مرحلته الفنية الاولى . مات صريع الحب — مات فى مستهل الرجولة ونجمه متألق السنى فانطفأت تلك الشعلة كالشهب دون ضعف او وهن اذ كانت آخر سنى حياته احفلها بعظائم الفن وابدع البدائع ومأساته انه وثق بالعالم اكثر مما يجب لهذا العالم ان يوثق به .

ففقره والمرض الذى احتاه والامتهان الذى جر اليه فقره فبهته الى الشعور بالفاصل بين العالم المادى بفلسفته واعتداده بسلطانه وقياس قوته ضد القدر الغشوم والعالم الروحي الخالد حيث لا حدود ولا كفاح ضد قضاء محتوم .

مزايا موسيقاه : امتزاج الجذل والخيال وامتزاج الفكر بالعاطفة وذيوع انغامه لم يخرجها الى حد الابتذال فى اي منها اذ هى ترديد دائم وصدى خالد لرؤيا حافلة بالشجن والخبرة السامية . وان نغمة الحنان التى تسيل بها اغانيه لهى نغمة احساس وادراك عميق لمعنى الحياه . يقولون انه آله الموسيقى البحتة بل ان موسيقاه خير من صورت الموت والحياة فى نغم عميق ينتزع جمال الموسيقى منه كل كآبة ويشذب حواشى الاحساس حتى ينساب الحزن الى فرح ويقترنا ويمتزجا الى انشودة الحياة والانتصار انتصار الخلود والجمال وهذه روعة الفن وخلوده فالموت عنده رمز للوحدة والالتئام مع الكون لا رمز للفناء والعدم . ان خبرة شوبرت بالموت لهى خبرة اسى حيوى . خبرة صادقة لا شعرية فقط . اذ ماتت امه وقد ثكلت بنوها وهو صبى يحبو ولم يك ينتظر من طبيعته الباسمة المرحة ان يتجه الفكر فيها الى القبور وذكرى الموت . بيد انه اولى مقطوعاته لحن مأخوذ من قصيدة شيلر Leichen Fantaisie حيث صور القبور والطريق المؤدي اليها وعالم الاموات تصويرا حيا ثم لحن دلفين وهى تموت حبا . اى ان الحب والالهام عند شوبرت يقربان من الموت فهما التغني فى اللا نهاية وسبل الروح ثم لحن الانتظار Erwartung (عن قصيدة لشيلر) حيث يصور غروب الشمس وقدوم الليل . ثم « تمجيد الدموع » وآف ماريا (وداعا يامريم) فهو قرين الشعراء وهو خالد اذ تناول بنغمه تصوير الملوك والصعاليك . إن الأغانى التى نظمها جوته ولحنها انشودة الاشباح على حافة الماء Gesang der Geister uber die Wassrn

لتصعد بنا فوق صفاتها الغنائية الى اسمي ذروة المتعات العقلية .

حياته طفولته شعريته. وكانت له منذ حداثته مفكرة لم تتسع لتدوين شؤون الحياة اليومية وشجونها، انما لافكاره ونتاج عقله — كان له من الصفات المحببة ماجذب اليه الأصدقاء. وفوق ذلك كانت غريزة الصداقة متأصلة عنده . وكان صديق كل شعراء فينا فى ذلك العصر فكان كل مايقع عليه نظره من شعر ناقص أو الهام غير موفق التوفيق كله أو فكرة قد تكون عرجاء لم تستو على قدميها بعد أن تصهر فى بودقة نغمه الفياض وكالساحر تنصهر فتخرج سبائك من الأصوات الخالدة .

كان صديقاه شوبر وماير هوفر. بيد أن صديقاه الروحيين كانا شيلر وغوته فيما معهما وحلق فى سماء الشعر الفخم والمعنى السامى. وكلما صعد فى ملكوت الفكر كلما ازداد بهما التصاقا وتماشى مع عظمة نزعتهما ، فكانت الحياة عنده كنزاً من الحقائق والاخيلة وصوراً دائمة التبدل من لذة الوجود ومتعة الحياة

ولد شوبرت فى فينا غرة شهر فبراير سنة ١٧٩٧ وكان والده معلما فى بلدة ليوبولد شتادت ومالبث ان ذاع صيته بجمال صوته فقبل طالبا فى الموسيقي والغناء فى معهد الغناء الدينى الأمبراطورى فبدؤوا يلقنونه مبادئ الكنجة فى مدرسة المنشدين. وهنا ظهرت عبقريته فرغما من أنه لم تتح له فرصة تعلم أصول الأنشاء الموسيقى كان دائم الدأب من نعومة أظفاره على تناول ورق الموسيقي الذى كان يمده به زميل قديم فى المعهد الموسيقى وكتابة العلامات الموسيقية كما كان يمليه عليه خياله الخصيب دون الرجوع إلى أصول موضوعه وكان يترنم بموشحاته واغانيه كلما خط منها سطراً وذلك وهو لم يعد الثالثة عشرة بعد

وفى سنة ١٨١٣ ترك شوبرت المعهد واتقاء لشر التجنيد العسكرى درس ثلاث سنين فى معهد والده غير أن ذلك لم يثن عزمه على موالاة الانشاء والتلحين فكان يلحن الأغانى والمقطوعات بسرعة معجزة فكان يتناول أشعار الأقدمين أو تلحين مهمل يطرأ على فكره فيستحيل فى يديه نغما ملهما مشحونا بالشجى مفعما بالعاطفة يملأ الأذن جمالا والقلب روعة . وفى سنة ١٨١٥ نظم مقطوعتين من نوع السيمفونى وخمسة من نوع الأوبرا ومائة وسبع وثلاثين من الأغانى (نشر منها سبعا وستين)

بيد أنه لذلك الحين لم يقدر القوم عبقريته بعد . وآية ذلك أنه لما تقدم فى طلب الحصول على وظيفة حكومية كمعلم فى احدي مدارس الموسيقى مرتبها يقرب من عشرين جنيها فى العام رفض طلبه ، لعدم كفاية المؤهلات ، كما قيل فى ذاك الحين . فتأمل !

وفى سنة ١٨١٨ عين معلما للموسيقى لبنى الكونت اشترهازى وكان فى أملاكه قد قارب العدم . غير أن ذلك لم يدنيه من الثراء قيد انملة بل ظلت حياته سلسلة شقاء وخيبة أمل وصراع عنيف مرير وظل كدودا كدود القز دائما ويهلك عما وسط ماهو ناسجه

ونضجت مقطوعاته مع الزمن فصارت قطعا من النغم الخالد مسددة الالهام محتمة التصويب نحو حبات الافئدة . وكانت هموم العالم الثانى لاتثني من عزيمته كائما كان يترنم ويلحن بالهام آلهى لايحيد له عن السير طوع ابحاثه

وكانت مقطوعاته من الوفرة بحيث سأل مرة عن ناظم أحداها فحار فى الجواب . وقطعته الخالدة ، انصت — انصت الى صوت القنبره ، (تلحين بقطعة من نظم شاكسبير) كتبت فى احدى مشارب البيرة (حدائق البيرة كما يسمونها فى المانيا) على احدى قائمة من قائمات الطعام والشراب بعد ان قرأها مرة للمرة الأولى وقد لحنت قطعتان أخريان خالدتان وهما ، من هى سلفيا ، و ، هلم ملك الكروم ، فى مناسبة كهنه وكان على قاب قوسين أو أدنى من الحصول على وظيفة يتبعها الثراء والشهرة وهى ترشيحه ليكون رئيسا للموسيقى فى مسرح البلاط الامبراطورى فى فينا وطلب منه أن ينشأ قطعة موسيقية

رأى انها فوق متناول صوت ، البريمادونا ، وطلب منه أن يبدلها فأبى وكان من جراء ذلك أنه فقد هذا المنصب

ولا يعيبه أنه لم ينظم مقطوعات طويلة كموزات وبيتهوفن اذ عبقريته تجلت فى الاغانى والتواشيح

ثم انهكته الامراض بعد ان ابل المرة تلو المرة ثم لم يحتمل جسمه المضنى وعقله المنهك تباريح المرض أصابه هذيان أثر عشاء فى الثالث عشر من اكتوبر سنة ١٨٢٨ وتوفى بعد ذلك باسبوع ولم يترك من المخلفات الا مايوازى جنيهين ونصف حسب التقدير الرسمي . ودفن فى أورتز فريد هوف على مقربة من بيتهوفن